الحركة الوطنية فى ليبيا

لما اشتدت الأزمة السياسية فى إيطاليا وأثيوبيا فى سنة ١٩٣٥ ، عرض أحد مندوبى الصحف الأمريكية على مسولينى حلاً يقترح فيه اقتطاع جزء صحراوى من أثيوبيا لايطاليا لعله بذلك ينصرف عن نية إعلان الحرب التى كان يبيتها حينذاك ضد الأحباش . فرمق مسولينى محدثه بنظرة حادة كلها سخرية وزراية وأجابه قائلا : « ومن قال لك إنى من هواة جمع الصحارى فى العالم ؟ » يشير بذلك إلى أنه يكفى إيطاليا أن تكون لها ليبيا وهو الاسم الذى أطلقه الطليان أخيراً على إقليمى برقة وطرابلس جميعاً .

والحقيقة أن هذه البلاد ما هى إلا جزء من الصحراء الكبرى المشهورة التى تمتد فى شمال إفريقية من النيل شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى نهر النيجر جنوباً . ولشدة طغيان الصحراء فى هذه البلاد اقتصر العمران فيها على طائفة من المدن الساحلية الصغيرة القليلة العدد والسكان مما دعا القدماء إلى أن يطلقوا عليها اسم « تريبوليس » أو طرابلس ومعناها المدن الثلاث . ولما كانت الزراعة فى هذه البلاد مقصورة على بعض الواحات وأجزاء من السهول الساحلية التى تجود عليها الرياح الغربية أحياناً بفيض من أمطارها فى فصل الشتاء ، فقد انصرف معظم الأهالى إلى الرعى وتربية الماشية . ولكن عدداً كبيراً من سكان هذه البلاد وما جاورها من شمالى إفريقية قد برموا بحياة الفاقة والشدة والاهمال التى تفرضها عليهم طبيعة بلادهم الصحراوية ، فانصرفوا من الصحراء وولوا وجوههم نحو البحر لعلهم واجدون فيه وعلى سواحله رزقاً طيباً ؛ وما لبثوا أن انتظموا فى سلك قراصنة البحر وقطاعه من جبابرة الملاحين الأتراك والروم من أهل جزر بحر إيجه الذين اعتنقوا الاسلام واتخذوا البحر المتوسط مهاداً ومعاشاً ، وسعوا فى مناكبه بالبطش والجبروت ، فكانوا يفرضون سلطانهم على السفن التى تمخر عبابه ، ويقررون على أصحابها من الأوربيين الجزية

والضرائب والعطايا يدفعونها صاغرين ، وإلا سلبت تجارتهم وأسر مواطنوهم وبيعوا بيع الرقيق ودمرت سفنهم تدميراً . وقد ظل سلطان قراصنة البحر قائماً فى شمال إفريقية منذ القرن السادس عشر ، وبلغ أشده وعنفوانه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ثم أخذ يتناقص شيئاً بعد شئ حتى احتلت فرنسا بلاد الجزائر فى سنة ١٨٣٠ ومن ثم بدأ أثر القرصنة يزول فى تلك الأرجاء .

كان طورغود القائد البحرى التركى أول من أقام للقراصنة دولة فى طرابلس فى منتصف القرن السادس عشر ؛ فقد خلص البلاد من حكم الفرسان الصليبيين سنة ١٥٥٣ وأتبعها الدولة العثمانية ، وجعل يبنى السفن ويسلحها ويحصن القلاع والرافئ حتى شيد لطرابلس أسطولا بحريًّا من سفن القرصنة أنزل به الرعب فى قلوب الملاحين والتجار من شعوب أوربا . وقد أصبحت التبعية التركية بعد طورغود اسمية وآل أمر حكومة البلاد إلى أيدى رؤساء الجنود من الانكشارية الذين جاءوا مع طورغود وأثروا من الأسلاب والغنائم التى كانوا يستولون عليها. وظل زعماء الانكشارية هؤلاء يتنافسون ويقتتلون فى سبيل الحكم حتى تسلم كبيرهم أحمد القرمنلى حكومة البلاد فجعلها وراثية فى أسرته منذ سنة ١٧١١ معتمداً فى موارده على ما تصيبه الحكومة من أموال القرصنة ، وما كانت تدفعه بعض الحكومات من الرسوم والعطايا لتأمين تجارتها وسفنها التى كانت تمر فى شرقى البحر المتوسط ، فكانت حيناً تتفق مع حكام طرابلس — أو الدايات كما كانوا يعرفون — فى معاهدات تعقدها معهم رأساً دون حاجة إلى الرجوع إلى القسطنطينية ، وأحياناً ينشب النزاع بين هؤلاء الحكام والحكومات الأجنبية ، ويشتد التشاحن حتى يصل إلى لون من ألوان الحرب . وقد سيرت الولايات المتحدة ذات حين طائفة من بحارتها لاحتلال ميناء درنة فى أوائل القرن التاسع عشر ، وحاصروا طرابلس وضربوها بالمدافع ، وفقد الأمريكان حينذاك إحدى سفنهم الحربية ، وأسر بحارتها . ولما لم يطق الأمريكيون صبراً على الاقامة فى درنة آثروا أن يتفقوا مع الحاكم بعد أن افتدوا أسراهم بمبلغ عظيم من المال. وهكذا كانوا كلما اشتط الحاكم معهم فى تقدير الضريبة التى يدفعونها أرسلوا إليه سفناً من أسطولهم ترغمه على قبول مطالبهم .

وقد امتد سلطان أسرة القرمنلى على الساحل من غربى ميناء طرابلس إلى بنغازى ، وكانت الحكومة العثمانية تحتفظ بها كاحدى قواعدها فى البحر المتوسط .

أما القبائل التى كانت تقيم فى داخل البلاد فلم تتأثر كثيراً بنظام الحكم ، وظلت مشتغلة بمنازعاتها الداخلية فيما بينها على ما عرف عنها إلى الآن . وقد طبعت القراصنة أخلاق أهل البلاد بصفات المخاطرة والجلاد والكفاح مع الأعداء والمنافسين أيًّا كانوا ومهما نالت منهم الخطوب والأحداث .

ولما ضعف سلطان تركيا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وتعاقبت انهزاماتها أمام روسيا وأمام ولاتها فى البلقان وفى الشرق ، طمعت الدول الأوربية فى ضم أجزاء من الامبراطورية العثمانية إلى أملاكها ، فكانت حملة بونابرت على مصر ، وأعقبتها بعد عشرين عاماً ثورة الاغريق ، ثم تجاسرت فرنسا وأرسلت حملتها لاحتلال بلاد الجزائر فى سنة ١٨٣٠ . فكانت هذه الأحداث جميعاً سبباً فى كسر شوكة القراصنة فى شرق البحر المتوسط و إضعاف دايات طرابلس ، كما كانت عاملا قويا فى تنبيه الباب العالى إلى ضرورة التيقظ للاحتفاظ بالبقية الباقية من نفوذ تركيا فى شمالى إفريقية . لذلك انتهز السلطان محمود الثانى فرصة تفاقم النزاع فى طرابلس بين الطالبين بالحكم من أسرة القرمنلى فأرسل فى سنة ١٨٣٥ قوة بحرية مكونة من ٢٢ سفينة وعليها والٍ من قبله لتسلم الحكم فى ولاية طرابلس الغرب ، وقد عرفت بالغرب لتمييزها عن طرابلس الشام وأصبحت تركيا منذ ذلك الوقت تحكم البلاد رأساً . وكأنما أحست بأن هناك دولا أوربية ترنو ببصرها نحو طرابلس وتطمع فى السطو عليها ، فجعلت تستميل الأهالى إليها بانشاء المدارس ، و إصلاح شؤون القبائل والادارة ، وتعيين بعض أهل البلاد فى وظائف الحكومة ، وأخذت تقوى الثغور والحصون وتسلحها ؛ حتى إذا أعلنت فرنسا حمايتها على تونس فى سنة ١٨٨١ ، واحتل الانجليز مصر فى سنة ١٨٨٢ لم يبق شك فى أن إيطاليا تعد عدتها للانقضاض على طرابلس لتحوز نصيبها من الغنيمة وهى البلاد التى بقيت فى شمالى إفريقية بل فى إفريقية كلها عدا الحبشة غير خاضعة لسلطان إحدى دول أوربا .

وكان بسمرك المستشار الألمانى قد ارتضى أن ينصرف اهتمام فرنسا وتفكيرها عن الالزاس واللورين إلى شمالى إفريقية ليوقع الشقاق بينها وبين انجلترا من جهة وبينها وبين إيطاليا التى كانت لها مطامع فى تونس من جهة أخرى . وأرادت فرنسا بدورها أن تشترى سكوت إيطاليا فاتفقت معها سرًّا على أن تكون لها طرابلس مقابل عدم اعتراضها على مشروعات فرنسا فى مراكش . وعلى ذلك

باتت إيطاليا تترقب الفرصة المناسبة للنزول بأرض طرابلس ، وقد سنحت لها الفرصة فى سنة ١٩١١ وكانت تركيا إذ ذاك قد دخلت فى طور جديد من حياتها الدستورية والسياسية على أثر ثورة جمعية الاتحاد والترقى فى سنة ١٩٠٨ و إقصاء السلطان عبد الحميد عن عرشه ، و إثارة الشعور الاسلامى فى العالم أجمع حول الخلافة العثمانية ضد أوربا . وكان وليم الثانى إمبراطور ألمانيا إذذاك يشجع حكومة تركيا بالمال والرجال ، و بمعونتها على تنفيذ المشروعات الاقتصادية الكبرى وفى مقدمتها مشروع السكة الحديدية من برلين إلى بغداد ، ومد فرع منها إلى الحجاز . فخشيت إيطاليا لو انتظرت أكثر من ذلك أن يقوى مركز تركيا فى طرابلس على الأيام بمساعدة ألمانيا، ويستعصى عليها بعد ذلك إخضاع البلاد التى سمحت الأقدار بأن تكون نصيبها من التركة . لذلك سارعت إيطاليا فى سبتمبر سنة ١٩١١ بارسال إنذار نهائى إلى تركيا بشأن طرابلس ، وأعلنت الحرب بعد ٢٤ ساعة من تسلم الانذار . ولم يجد الأسطول الايطالى صعوبة تذكر فى إخضاع المدن الساحلية : طرابلس وبنغازى ودرنة ، ولكن القوات الايطالية لم تجرؤ على التوغل فى الداخل على حين قد تسرب الضباط الأتراك بين القبائل ووحدوا صفوف الأهالى وقادوهم ضد الطليان كلما لاحت لهم فرصة للهجوم . وقد حاولت إيطاليا فى أول الأمر أن تضغط على الأتراك فتهاجم أسطولهم البحرى فى شرقى البحر المتوسط ، وتخترق المضايق . ولكن النمسا كانت لها بالمرصاد ، فأنذرتها بعدم الاقتراب من مياه البلقان ، فلم يسع إيطاليا سوى إرضاء حليفتيها النمسا وألمانيا ، واكتفت باحتلال جزيرة رودس وسائر الجزر الاثنتى عشرة أو الدوديكانيز . ثم أرادت أن تتعجل بالنصر إرضاء للرأى العام الايطالى من جهة وخوفاً من انكفهرار الجو الدولى من جهة أخرى ، فأرسلت أمداداً برية جديدة إلى طرابلس أحرزت بعض انتصارات على قوات المقاومة . وكانت دول البلقان تستعد لتوحيد كلمتها وجمع قواتها ضد تركيا ، فسارعت هذه باجراء مفاوضات الصلح بينها وبين إيطاليا فى أوشى لوزان بسويسرا فى أكتوبر سنة ١٩١٢ ونزلت تركيا عن سيادتها على طرابلس إلى إيطاليا ووافقت على إخلائها من قواتها ، على أن تبقى لها السيادة الروحية . وقد أراد الأتراك قبل مغادرتهم البلاد رسميا أن يداروا خجلهم أمام الأهالى ، فأعلنوا أنهم رغبة منهم فى إعادة الطمأنينة والسلام إلى البلاد ، قد خولوا الأهالى حق التمتع بالاستقلال الذاتى . وكان هذا التصريح

من أهم العوامل التى ساعدت على تثبيت أقدام المجاهدين فى حركتهم فصمموا على المقاومة إلى النهاية .

وهنا لا بد لنا من الاشارة إلى فضل الحركة السنوسية التى جمعت شمل القبائل ، وجعلت منها وحدة قوية خشيتها إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، وهى الدول التى كانت تشترك مصالحها فى الصحراء الكبرى والسودان الغربى .

ولم تكن الحركة السنوسية فى مبدئها إلا طريقة من الطرق الصوفية التى تدعو إلى تقوى الله والعمل الصالح والعودة بالاسلام إلى سابق مجده وقوته ، بالسير على سنن السلف الصالح ، ونبذ الخرافات والبدع المستحدثة . ولكن أهميتها جاءت عن طريقين : الأول مراكز التبشير ونشر الدعاية السنوسية . فقد أنشأ مؤسس الطريقة السيد محمد على السنوسى ، الذى استقر به المقام فى بنغازى سنة ١٨٥١ كثيراً من الزوايا فى مختلف البقاع لتكون مراكز للعبادة والتعليم ، وكان على رأس كل منها شيخ يجمع حوله الأهالى ويقضى بينهم فى منازعاتهم ويرشدهم ويبصرهم بشؤونهم الدينية والدنيوية ، وكان عليه أن يجمع رسوماً محدودة يصرف منها على الزاوية والمدرسة ، وما يعود على الجماعة بالخير وعلى البلاد بالعمران ، كحفر الآبار وزراعة الأشجار ، ويحتفظ بجزء منها ثم يرسل مايفيض بعد ذلك إلى الشيخ الكبير ، فكان نظام السنوسيين فى مراكزهم شبيهاً بحكومة داخل حكومة ، وهو مايطلق عليه الغربيون *imperium in imperia*.

أما الطريق الثانى الذى زاد أهمية الحركة السنوسية فهو انتشار الطريقة من برقة وتحولها فى عهد السيد المهدى السنوسى الذى خلف أباه فى سنة ١٨٥٩ من حركة دينية صرفة إلى حركة نظامية تكاد تفرض لها سيادة إقليمية فى بعض المناطق . ولا شك فى أن ضعف تركيا فى ذلك الوقت قد ساعد على اشتداد ساعد هذه الطريقة وذيوع سلطانها ، لا فى برقة وطرابلس فحسب بل كذلك فى الصحراء الغربية كلها . وفى السودان الغربى ووسط أفريقية ، فانتشرت زوايا السنوسيين بين بلاد المغرب الى اسطنبول ودمشق ومصر والهند . ومع ذلك فان السنوسيين لم يعمدوا إلى العنف والقوة فى أول أمرهم وتجنبوا كل أسباب العداء والاصطدام بتركيا خاصة وبغيرها من الدول عامة . فلما بدأت تركيا تتوجس خيفة منهم انتقل السنوسى الكبير من بنغازى إلى واحة الجغبوب جنوبى سيوه الغربى بمقدار ٣٠ ميلا . وفى سنة ١٨٩٤ ترك المهدى السنوسى جغبوب إلى واحة

الكفرة التى تبعد بمقدار ٧٠٠ ميل جنوبى بنغازى . وكان ارتحال السنوسيين جنوباً وتوغلهم فى أعالى السودان واتفاقهم مع سلطان واداى شرقى بحيرة تشاد سبباً فى اصطدامهم مع الفرنسيين الذين كانوا يعملون على تثبيت نفوذهم فى تلك الأقاليم . وقد أدى ذلك الصدام إلى استعمال القوة بين الجانبين فى سنة ١٩٠٠ وقد انهزم السنوسيون ومات المهدى السنوسى سنة ١٩٠٢ بعد أن تعلم السنوسيون دروسهم الأولى فى الحرب وأساليب القتال الحديثة . وكأنما كانت هذه المعركة الحربية الأولى تدريباً عمليًّا للسنوسيين ليستعدوا لمواجهة الأحداث التى كانت تنتظرهم . فما كاد شيخ السنوسيين يعود بهم إلى مقرهم فى الكفرة حتى واجهت البلاد الغزو الطليانى ، فكان السنوسيون روح المقاومة ومضرمى نارها وخاصة فى إقليم برقة الذى كانت لهم فيه السطوة والعصبية . وكان الأتراك حتى بعد عقد معاهدة أوشى لوزان قد تغلغلوا داخل البلاد واعتصموا مع المجاهدين فى مكامنهم وواحاتهم ، فلم تستطع إيطاليا نشر سلطانها إلا على المدن والسواحل . حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ودخلت إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء بعد تسعة أشهر من نشوبها ، تشجع الأهالى فى طرابلس وجاءتهم المؤن والذخيرة من تركيا بواسطة الغواصات الألمانية ، فقاموا وأعلنوا استقلالهم وكونوا جمهورية اختاروا على رأسها أحد زعمائهم ، واتخذوا مصراتة عاصمة لهم ، وكذلك أرسلت تركيا أميراً عثمانيا عينته قائداً عامًّا على شمالى إفريقية ، ولم يسع إيطاليا حينذاك إلا سحب قواتها من البلاد مكتفية باحتلال بعض الموانى وأهمها طرابلس وحمص .

ولكن سرعان ما دب الخلاف فى صفوف المقاومين ؛ إذ كان فريق كبير على رأسه السيد أحمد الشريف السنوسى زعيم السنوسيين بعد وفاة عمه يؤازره الأتراك والألمان وبعض رجال العرب الذين انضموا إلى صفوف المقاومة — يريد انتهاز فرصة الحرب لمهاجمة الانجليز فى مصر من ناحية حدودها الغربية على حين كان فريق آخر يتزعمه السيد محمد الادريسى بن المهدى السنوسى وخليفة الشيخ الكبير ، وكان يقيم بمصر — يعارض فكرة الهجوم على مصر حرصاً على مودة الانجليز الذين كان لهم فضل إيواء السنوسيين وحمايتهم من مهاجمة الفرنسيين لهم فى السودان والصحراء الغربية . وبمساعدة الألمان تغلب فريق الهجوم ، فقامت فى أكتوبر سنة ١٩١٥ قوة صغيرة مؤلفة من ٥٠٠٠ من السنوسيين ونحو ألف جندى تركى وجماعة من البدو يقصدون غزو مصر من الغرب من ناحية

السلوم وواحة سيوة . وكان الانجليز قد أرسلوا معظم قواتهم إلى تركيا للاشتراك فى حملة غاليبولى ، ولذلك اضطروا إلى إخلاء السلوم وركزوا قواتهم فى مرسى مطروح . وتقابل الفريقان فى عدة معارك أهمها فى سيوة وقرب السلوم . ولم يكن يرجى للمهاجمين نجاح لضآلة عددهم واستعداداتهم من جهة ، ولانقسام الآراء بين صفوفهم من جهة أخرى . ولذلك انتصر الانجليز رغم حرج مركزهم وخاصة فى مصر ، واضطر الجيش المهاجم إلى الارتداد إلى برقة . أما السنوسيون فقد احتفظوا بالواحات مدة قصيرة إلى أن تألفت وحدات حربية جديدة مزودة بالسيارات المصفحة والجمال ، فاستردت الواحات سنة ١٩١٧ وبذلك تفرقت جموع السنوسيين وضؤل شأنهم ، واضطر السيد الشريف السنوسى إلى مغادرة البلاد إلى تركيا ثم الحجاز تاركا زعامة السنوسيين إلى ابن عمه السيد إدريس السنوسى وهو الزعيم الحالى ، وقد تفاوض مع الطليان بعد الحرب وكانوا فى حال لاتسمح لهم باستئناف القتال مع أهل البلاد ، فاتفقوا معه على أن تكون له السلطة داخل إقليم برقة وتكون له الامارة أيضاً بلقب صاحب السمو بشرط أن يعترف لهم بحق السيادة ، فتم الاتفاق فى سنة ١٩٢٠ ، وقام أهل طرابلس فى سنة ١٩٢٢ يدعونه لزعامتهم أيضاً ؛ وبذلك جمع فى شخصه وحدة برقة وطرابلس ، وبدا للناس أن كلمة البلاد قد توحدت فى النهاية وأن زعيما وطنيًّا مجاهداً من أهلها سيقود البلاد فى كفاحها ضد الغاصب الأجنبى . ولكن ما كادت هذه الآمال تلمع فى الأفق حتى جدت عوامل عجلت بخيبة الأمل ؛ فقد عارضت إيطاليا فى حركة البيعة التى جاء بها الطرابلسيون للسنوسى ، ورجعت عن اتفاقها السابق معه وعادت تحارب حركة المقاومة بالايقاع بين الزعماء تارة وبالغدر حيناً وبالجيوش والدبابات والطائرات أحياناً . ولذلك لم يلبث السيد السنوسى أن غادر البلاد بعد بيعته إلى مصر وبقى متصلا بحركة المقاومة عن طريق أخيه الرضا أولا ثم بوساطة الزعيم عمر المختار الذى قاد الحركة بعد رحيل السيد ، واتخذ من الجبل الأخضر على ساحل برقة قاعدة له ومعقلا حصيناً لأتباعه من المجاهدين الذين جاءوا إليه من كل فج وصدقوا على ما عاهدوا الله عليه من بيع أرواحهم رخيصة فى سبيل الله والوطن .

وكانت الحكومة الفاشية بزعامة مسولينى قد وليت أمر إيطاليا فى خريف سنة ١٩٢٢ وفى مقدمة أغراضها السيطرة على حوض البحر المتوسط و إحياء مجد

الامبراطورية الرومانية القديمة ، وأن تعيد إلى حوزتها أملاكها وولايتها القديمة ومنها طرابلس ، حتى يجد أهل إيطاليا الذين ضاقت بهم بلادهم فى هذه المستعمرات الجديدة متسعاً كافياً لجهودهم ولذراريهم التى كان مسولينى يباهى بها أمم أوربا جميعاً . لذلك نشط الايطاليون فى العمل على استتباب النظام و إخضاع داخلية البلاد . ورأوا أن خير طريقة لقمع حركة المجاهدين أن يضيقوا عليهم الحصار من كل ناحية ، فطالبوا الحكومة الانجليزية بتحقيق وعودها لهم بشأن تعديل حدود ليبيا شرقاً ومساعدتهم لدى الحكومة المصرية فى إدماج واحة الجغبوب قرب سيوة فى المنطقة الايطالية فتم لهم ذلك فى سنة ١٩٢٥ . وكانت الجغبوب من أهم قواعد السنوسيين ، وفيها قبر منشئ الطريقة السيد محمد على السنوسى ، وباحتلالها تمكن الطليان من حراسة الحدود الشرقية وامتنع تسرب المؤن إلى المجاهدين ، وأقفل الطريق فى وجه اللاجئين منهم إلى مصر . وقد أحكم إغلاق الحدود بعد ذلك بوضع الأسلاك الشائكة على امتداد ٣٠٠ كيلومتر من البردية على الساحل إلى الجغبوب . أما جنوبى ذلك فقفار ووهاد لا سبيل إلى اختراقها أو عبورها إلا بالطائرة .

وأخيراً عين القائد الايطالى المشهور جراتزيانى حاكماً عاماً على برقه وطرابلس ، وأخذ يعمل على إخضاع حركة المقاومة نهائيا بترغيب طائفة من السنوسيين وإرهاب طائفة أخرى بمختلف وسائل التعذيب ، ومن أقساها وأشدها وحشية أخذ المجاهدين فى الطائرات والتحليق بهم فى الجو ثم إلقاء جثثهم فوق مواطنهم على مرأى من ذويهم وقبائلهم . وأخذ الطليان يخضعون الواحات واحدة بعد أخرى حتى وصلوا إلى واحات الكفرة ، وتقع جنوبى بنغازى بنحو ألف كيلومتر . وفى هذه الواحات كان السنوسيون قد أنشأوا قرية التاج وزاويتها ، وهى تعتبر أكبر معقل للسنوسيين وفيها شيدوا دورهم ومخازنهم ، فسير الطليان إليها أكبر حملة اخترقت صحراء برقة فى العهد الأخير ؛ إذ كانت تتكون من نحو ثمانية آلاف جمل وعشرين طائرة محملة بالقنابل . واشتبك الأهالى مع القوة الايطالية فى معركة دامت بضع ساعات تمكن فى أثنائها المجاهدون من التسلل وحداناً وجماعات فى الصحراء يممين شطر مصر والسودان شرقاً ومعهم نساؤهم وأطفالهم وما خف من متاعهم ، ومضوا مشاة وركباناً يتخبطون ذاهلين من أثر الصدمة ناكسى رءوسهم مما أصابهم من الهزيمة ، يرافقهم الجوع ويتعقبهم العدو بطائراته وقنابله

ويتخطفهم المرض والموت ، فكانوا يتساقطون على طول مسالك الصحراء وشعابها كأوراق الشجر أذواها الخريف . حتى إذا قاربوا حدود مصر وصل رائد منهم إلى الواحات الداخلة فى مصر ، وقص على مسامع أهلها وحكامها حكاية هؤلاء التعساء المنكودين ، فسارعوا بانقاذ من أمكن إنقاذه منهم بعد مسيرة نحو شهرين قمريين .

وكان احتلال الكفرة كالصاعقة نزلت على رءوس المجاهدين ، فأيقنوا بقرب مصيرهم . وأراد الطليان أن يسدوا فى وجوههم جميع المسالك ، فأقاموا الأسلاك الشائكة على الحدود الشمالية الشرقية ، فانقطعت أمام السيد عمر المختار وأصحابه أسباب الاتصال بالخارج وأصبحوا مضيقاً عليهم من جميع الجهات . وذات يوم من ربيع سنة ١٩٣٢ ، وقع السيد عمر أسيراً فى أيدى الطليان فسجنوه ثم حاكموه عسكريا ونفذوا فيه حكم الاعدام ، فارتكبوا باعدامه إثماً لا يزال عاره يلطخ صفحة استعمارهم إلى اليوم . و بموته انطفأ آخر بريق لحركة المقاومة فى ليبيا . وأخذ الناس يتناقلون فى جميع أنحاء العالم العربى أحدوثة البطولة التى اضطلع بها أهل برقة وطرابلس مدة عشرين عاماً ، والتى تمثلت فى جهاد السنوسيين واستشهاد عمر المختار ومن سبقه من المجاهدين والشهداء ، وقد راح ضحيتها نحو ثلث شباب برقة ونحو تسعة أعشار ماشيتها ؛ فلم يبق من سكان البلاد اليوم أكثر من مليون نفس . وقد ظن الطليان أنهم بقضائهم على حركة المقاومة قد مكنوا لحكمهم وتيسر لهم استعمار ليبيا . ولكن سرعان ما خاب ظنهم ؛ فقد انتشر عقد المجاهدين حقا ولكنهم انتشروا بين الشعوب العربية فى كل صقع يرددون مأساتهم ، وما اقترفه الطليان فى بلادهم من ألوان الجور والغدر والوحشية ، حتى أضحى الحكم الفاشى فى نظر الأمم العربية مبعث الخوف والشقاء ، وجرثومة الفساد والانحلال التى يجب أن تستأصل إن كان مقدوراً للشعوب أن تعيش وتترقى فى مدارج المدنية .

وما كادت الحرب العالمية الثانية تنشب وتدخلها إيطاليا إلى جانب حليفتها ألمانيا ، حتى تجلت روح الكراهية والسخط ضد إيطاليا فى شمالى إفريقية ، وتقدم السيد إدريس السنوسى وأخطر الحكومتين المصرية والبريطانية باستعداده لمعاونة الحلفاء . وعلى أثر ذلك تألفت فرق القوة العربية الليبية من متطوعى برقة وطرابلس وأمدتهم انجلترا بالذخيرة والمؤن وبعض الضباط . وقد أبلى الليبيون بلاء حسناً

فى المعارك التى تتابعت جيئة وذهاباً فوق أديم أرضهم ، فتارة كان يتقدم الطليان فيصدهم الحلفاء ، وأخرى كان يرتد الطليان ويتقدم الحلفاء ، وآونة كان يزحف الألمان ومعهم الطليان ثم يردهم الحلفاء . وكانوا كلما ارتد الانجليز وحلفاؤهم وعاد الطليان إلى قواعدهم آثروا بمقتهم وغضبهم أهل ليبيا ، واختصوا من بينهم من كانوا يتعاونون مع الحلفاء فأنزلوا بهم سوء العقاب .

وفى ديسمبر سنة ١٩٤٢ خرج الحلفاء ظافرين من موقعة العلمين وأخذوا يطاردون فلول المحور غرباً حتى قذفوا بهم إلى البحر ، فثبتت قدم الانجليز فى ليبيا وبدءوا يقيمون حكومة مدنية يشترك فيها أبناء البلاد . وكان النزاع القديم بين القبائل فى برقة وطرابلس قد بدأ يتحرك ، ولكن أحداث الحرب الأخيرة قد أوثقت الصلات بين الجانبين وتوحدت كلمتهم فى القرار الذى أصدروه فى أكتوبر سنة ١٩٣٩ ، ثم أيدوه بعد موقعة العلمين باعترافهم جميعاً بالأمير السنوسى زعيماً لهم ، وبأن له وحده أن يتكلم بلسانهم فى مختلف شؤونهم . وقد أعلنت الحكومة الانجليزية من جانبها بلسان وزير خارجيتها عقب انهزام قوات المحور تصميمها على عدم السماح بعودة الحكم الايطالى إلى برقة أو قرنيقيه بأية حال ولكنها لم تصرح بشىء عن نيتها نحو طرابلس حيث يكثر الطليان وتشتد المنافسة .

وقد نبتت عقب انتهاء الحرب الأخيرة مقترحات مختلفة بشأن إدارة البلاد ؛ فقد طالبت روسيا بدون جدوى أن تكون لها الوصاية على طرابلس حتى تحل محل إيطاليا فى حوض البحر المتوسط وتخرج من عزلتها فى البلقان إلى مياه البحر المتوسط ، ولتشرف على شؤون الشرق الأوسط من كثب بعد أن أصبحت هذه المنطقة أشد مواطن العالم تنافساً بين الدول وأكثرها خطراً . وتقدمت مصر تقترح أن تتمتع ليبيا باستقلالها السياسى ، وإن كان لا بد من وضعها تحت الوصاية فترة من الزمن فان روابط الجوار واللغة والدين تجعل حق مصر فى ذلك أولى من غيرها .

وقد مضى الوقت الذى كانت مصر فيه مؤمنة بمناعة حدودها من ناحية الصحراء الغربية معتبرة خط الطول رقم ٢٥° درجة شرقى جرينتش آخر حدودها الغربية خطاً وهمياً ؛ فقد ذللت الصحراء للسيارات والدبابات وتقدم الطيران فألغى مسافة الصحراء زماناً ومكاناً ، وأصبح جديها وقيظها ووعثاؤها كل أولئك أموراً لا يحس بها العلم الحديث ولا تعترف بها السياسة . لقد أصبحت الصحراء

عنصراً مهما فى جسم السياسة ، العالمية وزالت عنها إلى غير رجعة تلك الحصانة الحربية الماضية . فقد أظهرت الحرب الأخيرة كيف استطاع العدو أن يتخذ من صحراء ليبيا ومن واحة الجغبوب التى اغتيلت منا حين كانت بريطانيا لا تزال تحسن الظن بايطاليا — أن يتخذ منها قاعدة حربية يحشد فيها قواته ويشب منها على حدودنا . ولو لم تكن بريطانيا محتفظة وقتئذ بتفوقها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر لاستطاع العدو أن ينفذ خطة « الكماشة » الحربية التى دبرها ضد مصر والسودان بتسيير قواته شرقاً من ناحية ليبيا وغرباً من ناحية أرتريا والحبشة .

من أجل ذلك كان فى مقدمة ما طلبته مصر فى مؤتمر الصلح الذى انعقد فى باريس فى صيف سنة ١٩٤٦ إعادة واحة جغبوب إلى حدود مصر كما كانت .

والناس فى برقة شديدو التمسك باستقلالهم ، وللسنوسيين بينهم مقام مرموق فلهم علمهم الخاص وتجمع الضرائب وتصدر المنشورات باسمهم ، وزعيمهم يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . أما فى طرابلس فالحال غير مستقرة ، وللطليان فيها قضاة وأطباء وفنيون منتشرون فى البلاد ، والانجليز لايزالون يحتلون البلاد حراساً على أموال الطليان ، وذلك إلى أن يصل الحلفاء إلى قرار حاسم بشأن مصير ليبيا . وقد قرروا أخيراً إرجاء بحث المسائل الاقليمية الخاصة بمستعمرات إيطاليا إلى مابعد انقضاء عام على توقيع معاهدة الصلح مع إيطاليا ، وقد وقعت المعاهدة فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ .

ولا تزال إيطاليا تطمع فى أن يجود عليها الحلفاء بشئ فى طرابلس ثمناً لمعاونتها لهم فى المرحلة الأخيرة من الحرب ضد ألمانيا واستمالة لها إلى جانب كتلة الدول الغربية . ولكن يبدو أن انجلترا تريد أن تبقى مضطلعة بسياسة البلاد العليا سواء كان ذلك بطريق الوصاية أو بالاتفاق مع حكومة وطنية تتولى أمر البلاد بمعاونة مستشارين من الانجليز ، ويكون شأن ليبيا حينذاك كشأن مملكة شرق الأردن .

وتواجه ليبيا بعد الحرب الأخيرة أزمة اقتصادية اجتماعية على درجة عظيمة من الخطورة ؛ فقد أرسلت إيطاليا إلى ليبيا عشرات الآلاف من الطليان وأقطعتهم الضياع والمزارع من الأراضى التى صادرتها من أرض المجاهدين ومن أراضى الزوايا السنوسية . وكانت الحكومة الايطالية تمد المستعمرين لهذه الأراضى بالماشية والعدد والبذور مما جعل الحكومة المحلية فى ليبيا تهمل الاقتصاد العام

للبلاد ، حتى بلغت قيمة وارداتها فى سنة ١٩٣٨ ثمانية أضعاف صادراتها ، وباتت البلاد بعد الحرب فى حاجة شديدة إلى رءوس الأموال و إلى الرجال الفنيين الذين يعالجون ما سببه الطليان من مغارم على البلاد وهى الفقيرة فى المعادن والزراعة.

ولما جلا الطليان عن البلاد غادرها كثير من مستعمرى تلك الأراضى . ولكن ما كادت تنتهى الحرب حتى ضجر أولئك بمقامهم فى إيطاليا وسئموا اضطراب الأحوال فيها ، وحفزهم الحنين إلى ضياعهم وسابق رغدهم فى ليبيا ، فبدءوا ينسلون إليها سرًّا وعلانية كما ينسل اليهود إلى فلسطين ، بعد أن أصبحت ليبيا لأهل إيطاليا عامة ولأهل صقلية بصفة خاصة « أرض المعاد » . وسيؤدى وجودهم حتما إلى مشكلة اجتماعية خطيرة . فلعل بريطانيا وهى القائمة بشؤون الحكومة مؤقتاً أن تبادر بأخذ الحيطة حتى لا يشهد العالم حركة صهيونية جديدة تقوم فى ليبيا .

وأمام أهل برقة وطرابلس جميعاً واجب قومى يدعوهم فى أثناء فترة هذا العام إلى التضافر والعمل يداً واحدة على مناهضة كل حركة ترمى إلى إعادة مأساة الاستعمار ثانية بين ظهرانيهم . ومما يدعو إلى التفاؤل أنه قد عاد أخيراً إلى البلاد رجال من الليبيين كانوا قد نشأوا وتثقفوا أثناء الاحتلال الايطالى فى جامعات ومدارس مصر وغيرها من بلاد الشرق العربى ، وقد حملوا معهم جميعاً إلى ليبيا أمانى الجيل الجديد وأهدافه نحو الاستقلال فى ظل الجامعة العربية . وإنهم وأيم الحق بهذا لجديرون .

محمد رفعت